قالت : ان أصدقاءكم ، اليوم ، مختلفون . فهم أصدقـــاء مخلصون . ألم تذكـــر الشيوعيين ، مثلا ، بالخير ؟

قال : على الرأس وفوق الحاجب . الا أن غذاءنا الاساسي هـــو زيت الزيتون . نستحلي اعواد الخرفيش الا أنها تنقصف . لا بأس بالبرق ولكنه لا يزيل ليلنا الصامت . سنظل نجربهم ونجربهم ونجربهم ، في صمت ، حتى يطعمونا من زيتونهم . صياح الديك لا يطلع الصباح . ولكن ديوكنا ستصيح حين يطلعونه . فعلى أصدقائنا أن يتعلموا النطق بلغتنا ، لغة الارض والدواب والمحراث ـــ الصمت الدؤوب !

وكان القوم الغرباء يهزون رؤوسهم ، بصمت ، استحسانا . وأحببت أن اقاطعه قائلا : لو كان كلامك صحيحا لكنت أنا ، سعيدا ابا النحس المتشائل ، الصامت ذلا ، صديق الفلاحين الاول !

لولا انني تذكرت ماضيّ النابح وانني كنت اتكلم بالوشاية ولا أصمت !

ثم أتتني خاطرة عجيبة حقا وهي أنني ، على طول باعي بالوشاية ، لم استطع ان أشي بصمت رجل صامت . فصمت !

وفيما أنا في هذه المناجاة الصامتة ، بيني وبين نفسي ، اذا بامرأة عجوز ، هزيلة كعود ذرة جاف ، تدخل علينا دامعة العينين وهي تصيح : السر مات ، يا أبا محمود ، فعلام تتستر !

فهرع ابو محمود نحوها واخذها بذراعيه ودفعها محاولا أن يخرجها الى الخارج . فأبت . فظل يحوطها بذراعيه وقد أسند رأسه الى صدرها وأجهش بالبكاء كالاطفال وهي تخفف عنه وتشاطره البكاء ونحن مذهولون والقوم الغرباء ينسحبون من المضافة واحدا واحدا فيبتلعهم الليل البهيم وقائلهم يقول : السر مات . ولكن علينا ، غدا ، أن نعيش !

قضينا تلك الليلة مستيقظين وأبو محمود يروي لنا أعجب قصة سمعناها عن شاب ضرير من اهل القرية ترك قريته ، في عام ١٩٤٨ ، مع قوافل النازحين ، بلا قوافل ، الى بلاد العرب الواسعة . ثم تسلل عائدا الى قريته بعد قيام الدولة . فظل أهل القرية يحفظون فيما بينهم أمر عودته . فآووه وأطعموه . واحترف صناعة الحصير والمكانس . فزوجوه . وادعوا ان زوجه هي امرأة اخيه الثانية ، وان اولاده هم اولاد أخيه منها . وحفظوا السر هم واولادهم من بعدهم فتكاثر اولاده وتكاثر حفظة السر فلم يبلغ آذان السلطة على الرغم من تكرار التطويق طول الاعوام العشرين الماضية . وكان يموت مختار ويولون مكانه مختارا فيختار لهم ما شاؤوا من الوشاية الا هـــذا السر الذي اضبح كالعرق الدساس لا يدسون على بعضهم البعض به ، او كيقظة الضمير الذي يجب الا يوقظ .

حتى شاخ السر فوافاه الاجل الليلة فدفنوه صمتا وبكوا عليه صبرا .

ـــ ومن تكون تلك المرأة التي اقتحمت علينا المضافة ؟

ـــ أم أولاده .

ـــ ومن تكون لك ؟

ـــ والدتي !

ـــ خفف عنك . لقد عاش عمره ، رحمه الله !

ـــ ولكنني لم اعشه . كل يقول هذا والدي . أما أنا فأنكرته حتى اعيش .